فصل من رواية «المدّ» لمنهل السرّاج

بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٧ منعت إدارة المخطوطات والنشر في اتحاد الكتّاب العرب طباعة هذه المخطوطة.

عندما رأى فارس فطمة للمرة الأولى عند ضفّة النهر كانت تَبْكي بعويل مُرعب، وهي تَغْسل ساقيْها: «أهذا دمي، أَمْ دمُ أعمامي، أمْ أبناءِ أعمامي؟» اِختَطَفَها وهو ينهاها عن الصراخ، فيما مضت تهلوس: «احترق بيتُ لميا وتشرّد أهلي، كلٌّ في اتّجاه. وجدتُ نفسي وحيدةً عند النهر. البيت الكبير فارغ. غرسوا حِرابهم في تراب الحديقة. كأنّني رأيتهم يَطْعنون النخلة. أصاب جدَّتي الخرسُ والعمى قبل أن تَخْتفي. أُمّ الحب احتضنت الأطفالَ وهربتْ بهم. أمّي ركضتْ خلف أبي عندما أخذوه كي يسألوه عن لفافة نذير. أختي ليلى... أتكون مع أُمّ الحب؟ لقد غَسَلوا أحذيتَهم الثقيلةَ بماء البحرة التي امتلأتْ من المطر. أخي أحمد، الصغير السنّ، أخذوه مبلَّل الثيابِ ببوله.»

أخذ فارس يهدّئها: «كُفّي عن الصراخ. يجب أن تنجي بنفسك وتُنجيه...»

انصاعت للركض معه عبر البساتين الخلفيّة، كانت تستطيع أن ترى في طريقها اللاهث بقايا أعضاء بشريّة مبعثرة: مَعِدَةً ملتصقةً على جدار، قلبًا مرميّاً هناك، ذراعًا لا تَعْرف صاحبها، بنطالَ بيجامة فيه ساقان. «ربّما تكون بقايا جثّة أحد أولاد عمّي.»

وسط البيوت التي تتهدّم حولهما، وصلا صخرتيْن أبتا إلاّ أن تَصْمدا. قالت وهي تتقيّأ وتَلْهث: «أرجوكَ، أريد أن أُسند ظهري بين هاتين الصخرتين.»

ـ لا وقت. سوف يصيبنا القصف.

لكنّها تركتْه، ودخلتْ بينهما. لم تستطع عيناها رؤيةَ الظلّ بعد امتلائهما بالغبار الكثيف. تهاوت على الأرض، مغميّاً عليها ثانيةً. وحين استيقظتْ رأت أمامَها كومةً هائلةً من الجثث. صرختْ مرةً أخرى. شدّها فارس ونهاها أن تكفّ. لكنّ أنينًا انطلق من تلّة الجثث جعلها تصيح:

ـ يوجد أحياءٌ يجب إنقاذُهم.

أجابها كاذبًا:

ـ إنّه صوت القطط.

سحبها وهو يَقْطر عرقًا، دموعًا، رعبًا.

خرجا من حارات المدينة. أخذا كلَّ أنواع وسائل المواصلات كي يصلا إلى أقرب ضيعة. وعندما أَمْسك فارس بيدها وهي تَهْبط من الطرطيرة،[1] قال: «يدك ساخنة جدّاً، رغم البرد الشديد.»

أجابته: «من أنت؟ وما اسمك؟»

١ ـ شاحنة صغيرة بثلاث عجلات فقط.

وجدا في الضيعة بعضَ أهل المدينة ممّن استطاع أن يَهْرب مثلَهم. قضيا بضعَ ليالٍ في ازدحام الضيعة يأكلان اللقيْمات التي تهيّأتْ لهما من المساعدات كي يَدْفعا البردَ والجوعَ والتعب.

صبرًا؛ فلميا بَعْدَ ساعات ستصبح لميا المجنونة، عند الفجر تمامًا.

باقٍ في تنكة المازوت ليترٌ أو أقلّ، موضوعة خلف باب بيتها، عند ركن الخطر مع مَنْقل الفحم ووابور الكاز، وكلٌّ ما تتوقّع أن يؤذيَ طفلتَها الشقيّة «سحّورة.»

كانت لميا نائمةً بعيون نصف مغلقة، ثديُها مع طفلها. دَفَن زوجُها رأسَه وتنهيدتَه بين كتفيْها خلف ظهرها. طفلتُها ابنةُ الثلاث سنوات نائمةٌ نومًا عجيبًا غريبًا عند قدميْها.

نامت، من تعبها، لميا اليقظةُ دائمًا. كذلك فَعَلَ زوجُها المريض. لكنّ الطَّرْقَ الشديدَ جعله يَقْفز من فرشته، ومن خوفه، ليَفتح البابَ. ركلوا قامتَه النحيلة. داسوا أرضَ الدار الإسمنتيّة السوداء. خطوتان. وجَدَتْهم بشعارهم المعروف. سحبتْ ملاءتَها وشدّتْها عليها، وعلى ابنها المتشبّث بثديها. غضبتْ من الرضيع، فَرَمَتْه فوق ظهرها، لكنّه ظل متمسّكًا بكتفيها اللتين تحوّلتا شرفةً لمراقبة الغرباء. نخزوا بالحراب الثيابَ المعلّقة. دفَعوا بأحذيتهم القاسية خُفَّ الطفلة البلاستيكيّ الأحمر والمقصوصة مقدِّمتُه. رفعوا الوسادةَ التي تَحْمل رأسَ الطفلة وفَتَّشوا تحتها. لم يجدوا شيئًا. تركوها. هوى رأسُ سحّورة، لكنّها لم تستيقظْ. كانت عينا أنس تَرْقب كلَّ شيء من شرفته التي هي كتفا أمه المتنقّلة: تَصْعد وتَهْبط وتلملم وتسوّي ما يخرِّبه المقتحمون في بيتها الصغير. في غفلةٍ منها، وبسرعةٍ كالحقد، أَمْسَكَ أحدُهم تنكةَ المازوت المتبقّي من خلف باب بيتها وسكَبَها على كلّ شيء. أمّا لميا المأخوذة فقد سَحَبتْ وسادةَ زواجها، بدل سحّورة التي لم تستيقظ، رغم كل الصخب، من غفوتها المطمئنّة عند قدميْ أمّها، ولن تَسْمح لأيّ سبب بسحب السكّينة منها. لكنّها تفحَّمتْ. أما لميا التي فوجئتْ في ركضها بحملها الوسادةَ على صدرها بدل الطفلة أو الطفل الصامت أنس في يد والوسادة في اليد الأخرى، فقد وقفتْ على الجسر، وقررتْ أن ترميَ الوسادةَ التي خدعتْها. لكنّها بدلَ أن تَفْعل ذلك، رمت الطفلَ في النهر تحت القناطر.

هكذا وجدتْ لميا نفسَها من دون أعباء، من دون طفليها، من دون زوجها، ومن دون عقل.

«لميا، يا لميا، أَتَذْكرين زوجَكِ الفقيرَ حارسَ إصطبلات الخيول لأغنياء الضفّة الثانية، حين كان يوجد خيول، وطفلَيْكِ سحّورة بنتَ الثلاث سنوات وأنس ابنَ الثلاثة أشهر؟ أتذكُرين أرضَ دارك الإسمنتيّة اللامعة المغسولة في عصرونيّة الصيف، وبرميلَ الغسيل الذي كنت تَغْلين فيه خِرَقَ طفلك؟»

لميا كانت كالنحلة، تَقْطع الجسرَ في اليوم الواحد عشراتِ المرات، تَدْفع أيَّ باب من غير تكلّف، تضع خُفَّها تحت أوّل شجرة، وملاءَتَها فوق أول غصن. تَغْسل يديْها ووجهَها ورقبتَها. ترتّب ما حولها وتلملم بيديها كلَّ ما تجده في طريقها. تسقي الأحواضَ على عجل. تشوي الباذنجانةَ، تَقْطف الملوخيّة، وتقلي البطاطا لعشاء الأطفال المدلّلين. تهْرع إليها دجاجاتُ البيت، وإنْ لم تَنْتبه لميا إليها. تثرثر مع الجميع، ولا تكفّ، وإنْ لم تجد أحدًا تثرثر معه، فسوف تغنّي. قد تجد أمامَها صندوقَ فاكهة؛ تتناول واحدةً تمسحها بثوبها، وتأكلها على تعبها مواصلةً ثرثرتَها. وعندما تصادف شيئًا مجهولاً، مسجّلةً حديثةً أو آلةً كهربائيّةً ما، فإنّها تَضْحك ساخرةً من جهلها، معتذرةً من كلِّ مَنْ حولها. لا تسأل أحدًا ما يَحْتاج؟ فهي تَعْرف ما يَحْتاجه الجميعُ، ولا أحد يَعْرف ما تَحْتاجه هي، اللّهم إلاّ حاجتها لتأمين حاجاتهم.

احترق البيتُ، ثم انهار مع بيوت الضفّة الثانية، وغاب زوجُها مع مَنْ غابوا، ورمت الوسادةَ المتبقّيةَ في حضنها. رأت حارسَ الطاحونة يتحوّل إلى قطّ ليليّ، ورأت حارتَها والضفّةَ الثانيةَ كلَّها ركامًا...

حماه